التشابه الفكري بين الشيخ نور الدين ولي وأبي العتاهيةفي شعر الحكمة

د. رشيد فاتح القاسمي

المـدخل: إنّ أبا العتاهية (748-828 م) والشيخ نورالدين ولي(1378-1438 م) من روّاد شعر الزهد، أوّلهما في اللغة العربية وثانيهما في اللغة الكشميرية . وإنّ بينهما تو افقا كبيرا حسب الأغراض وتشابها طريفا حسب المو اقف لهذا النوع من الشعر من معرفة الله والحنين إليه، والموت، والبعث بعد الموت، وفكر الآخرة، والتعبير بمن غبروا من المشاهيروالملوك والأغنياء والعامة من الناس، والتصوير عن الحياة الدنيا وزوالها، وذكر غو اية النفس ومسدّ باب ملذّاتها، والتحرّزمن الرزائل من العادات والتخلّق بالشمائل الحميدة ، وقضاء الحياة مستمدّا من النظرات الصائبة لتنظيمها. وكلّها يرجع إلى منهاج الحياة الإسلامية الذي يبتني على استصغار الدنيا بالنسبة للآخرة.

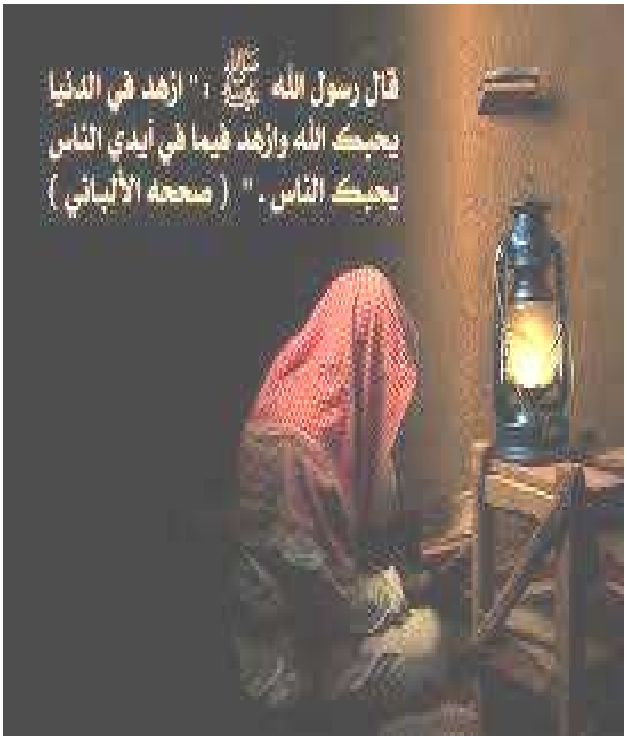

نقدّم في هذه المقالة شعرهما الذي قدّماه في الحكمةوالنظرات الصائبة في الحياة الإنسانية المو افق معنىً والمتشابه فكرا على الرغم من كونهما من اللغتين المختلفتين.

إنّ بين الزهد والحكمة صلة وثيقة، لأنّ الحكمة لا تصدرإلّا من رجل اختبر الحياة، وخاض

فيها. والحكيم الذي يُتقِن الأمورويتمعّن فيها. وإن للزهاد إتقانا وتعمّقا في الأمور. ويشهده قول رسول الله ﷺ: إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة"[1]. ولهذا نرى أنشعراء الزهد يعبّرون عن النظرات الصائبة في الكون، والحياة، والناس، والدين، والأخلاق، والعادات. وهذا الاقتران يحدث فيه تاثيرا وجاذبية. اقتبسنا من شعر شاعرينا ما يهم بهذا الخصوص كما يلي: يقول الشيخ نورالدين ولي ما يزرع يحصد:

ژَندُن ژٹھ اَرکھل رُوَکھ
تَھ کوتاہ پھل بوِی
دُپہِ تراَوِتھ گندُھک وُدَکھ
ژٕے کوسو براٹھت چھیٖی
سمسار تراو تَوے زُوَکھ
نُندِیُن دَپُن چھُیی[2]

الترجمة: قطعتَ شجرة صَنْدَل فغرست شجرة أرخل (شجرة توجد في كشميروهي ذات رائحة كريهة، ومن يمسها يصيب بحكّة) فكم تثمر أرخل وما ذا تثمر؟ أغمضتَ بصرك عن العُوْدِ ووضعت كبريتا في المِبخَرة فلأيّة رائحة في قلبك أمل؟ ازهد في الدنيا فتعيشَ حيّا. وهذا من قول من يُدْعى بـ"نند" (ترخيم نورالدين ولي).

ويقول أبو العتاهية:

ما ينال الخير بالشر، ولا ... يحصد الزراعُ إلاّ ما زرع
خذ من الدنيا الذي درّت به، ... واسل عما بان منها، و انتقطع
إنّما الدنيا متاع زائل ... فاقتصد فيه وخذ منه ودع[3]

ويقول الشيخ على هذا النمط::

کنڈی وَوَکھ تہٕ کنڈی رُوَکھ
کندی اَتھہِ آوُے کیا زٕتھ
پانؤن وقتن یوٚد سجدا دِکھ
تور کِرٕث سَمہِ ہی بٕڑ سانزٕنتھ [4]

الترجمة: إن تزرع أشواكا تنبت مثلها ولا تنال شيئا من الزاد ؟ وإن تسجد في الأوقات الخمسة فيجتمع لديك ما تقدّم هناك.

ويقول أبو العتاهية:

الحمـــد لله حيثمـــا زرع الـــ ـــخير امـــرؤ طـــاب زرعـــه وزكـــا
لا تجتني الطيبات يوما من الـ ـغرس يد كان غرسها الحسكا[5]

وعلى كل، فمخّ شعرهما أنّ من يزرع الخير يحصد الخير ومن يذرع الشر يحصد الشر.

يقول الشيخ نور الدين ولي: الأحمق أحمق وإن يبدو عاقلا:

سیکہِ شاٹھن پھل کیا ووَکھ
دِک ژُمروٚن تھاجن چھیل
مُڈس پرٕنکھ، ۂستِس کشکھ
راوی ژٕھنُن کوٚم یاجن تیل [6]

الترجمة: إن تزرع البذور في شواطى رمليّه فكأنّك تفرّك طبقا حديديّا وتكرّشه. وإن تعظ لئيما

وتنصحه فكأنّك تحكّ جلد فيل وتخدشه. وإنّ الزيت لا ينفع صبّه في حلوى الحشيش ألبتّة.

ونلاحظ عند أبي العتاهية على هذا النمط:

إحذرالأحمق، واحذرودّه	إنما الحمق كالثوب الخلق
كلما رقعته من جانب	زعزعته الريح يوماً فانخرق
أوكصدع في زجاج فاحش	هل ترى صدع زجاج يلتصق
فإذا عاتبته، كي يرعوي	زاد شرا وتمادى في الحمق[7]

الحماقة هي نتيجة إساءة إستخدام الإنسان للذكاء الذي منحه إياه الله فهو على الرغم من المؤهّلات والقدرات لا يهتمّ بالأمور، ولهذا لا يليق بأن يؤمل منه آمال. وهو دائما لا يركز بما يهمّه. ويجدر هنا الإشارة إلى أنّ بن الجوزي قال: إن كانت الغفلة مجبولة في الطباع فإنها لا تكاد تقبل التغيير. ومهما يكن من أمر الحماقة فإنّها مما نواجهها في وقت ما فلنا أن نعاملها ما يلائمها. ومن الناحية الأخلاقية فالحمق يرتبط بالعجلة والغرور والفجور والسفه والجهل والخيانة والظلم والتفريط والغفلة والخيلاء .

إنالشيخ يعظ في لون الحكمة للاجتناب مما يضرّ نعمة الشباب و لا يتركه الإنسان حرّا. وهو يقول:

پر زَنين کندیؤ کرکھ نالہٕ متّی
کندیؤ کرَکھ یم متّی خیال
بازرٕ مولہٕ میلان یاوُن پٔیٹھی
کَندیؤ ژٕ کاژس ءٕکنکھ لال[8]

الترجمة: وكيف تحبّ أن تعانق النساء المحرّمات وتختال مخيلة المجانين؟ إنّ هذا جهلك بقيمة الفتاء، وهو لا يباع بالأسواق. إنّ الدُّرة لا تباع بالزّجاج.

ويقول أبو العتاهية:

يـا ربّ شـهوة سـاعة قـد أعقبت مـن نالهـا حزنًـا، هنـاك، طـويلا
وخـف الإلـه فإنّـه لـك نـاظر وكفـى بربـك زاجـراً، وسـؤولا
لا تـركننّ إلـى الرجـاء فإنّـه خـدع القلـوب وضـلّل المعقـولا[9]

وبهذا يعظان أن لا يجهلنّ أحدكم من قيمة الفتاء فيجعله ضائعة. وقد يمتدّ سوء عاقبة قضاء الشهوة ساعةً إلى مدة مديدة فليحفظه كل امرئ.

إنّ السؤال ذلّ عندهما وكما قيل "الْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ ذُلِّ السُّؤَالِ" وكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

يقولُ الناسُ لي في الكَسبِ عارٌ فَقُلتُ العارُ في ذُلِّ السُّؤالِ

يقول فيه الشيخ نورالدين ولي:

کیا کرِتُمی سُند کڑیہِ تہِ کارُن
لیس بٹیِس اتھہِ دارُن پٹیے[10]

الترجمة: إن يمدّ أحد يده سائلا إلى الخلق فلا ينفعه عمله الصالح ألبتّة .

ويقول أبو العتاهية:

مـن أراد الغنى فـلا يسـأل النـا س، فـإنّ السـؤال ذلّ ولـوم
إن في الصبروالقنوع غنى الدهـ ـر، وحرص الحريص فقر مقيم[11]

فليس السؤال إلا تقليل الشأن وعمل كريه جدّا.

الصداقة علاقة إنسانية تربط اثنين أو أكثر معا. تكون الصداقة مبنيّة على الاحترام المتبادل والمودّة. وهي تعدّ من أكبر النعم التي قد يحصل عليها الإنسان. والحق أن الصداقة لا توزن بميزان ولا تقدّر بأثمان فلا بدّ منها لكل إنسان. قدم الشيخ نورالدين ولي و أبو العتاهية الصداقة وأهميتها

وفوائدها والاحتياج إليها في شعرهما. يقول الشيخ نورالدين ولي يحصل القلب على السلوان والقرار بصحبة الصديق. وإنّ لديه كثيرا من الاحترام لصديقه ويعتبر نفسه ضيق القلب وفاقد الاطمئنان بدون صديقه. ونجد نفس المعنى في شعر أبي العتاهيه بأنّ الصّديق يكون شريكا في هموم صديقه، وهو أمله عند المصائب ومحافظه على غياب منه، وكذلك هو من يفتخر به الإنسان. يقول الشيخ نور الدين ولي: إنّ على المرإ أن ينصر صديقه حسب ما في وسعه. وليكن مستعدّا لتعاونه في كل وقت وليعامله بمثل نفسه.

یار بیٚلہِ آسہِ تہٕ سَر تَس دِزے
یار چھُے وِزے وِزے پژھیات
بُتلہِ ژُمزِ تہٕ اَدِ کتہِ یِزے
وقتہِ کِس رَحشس کُرِ زے کیات [12]

الترجمة: إن كان لك صديق فقدِّم إليه كل ما تستطيع من العون. إنّ الصديق لسَنَدٌ عند الحاجة. وإن كان بحاجة إليك فاحضره ولو تكن على أقصى المسافات.

وكذالك يقترحان لكل من يريد أن يختار صديقا له فله أن يرعى فيه الصالحية والتقى فإن الصديق يقتدي صديقه، وبالصداقة يتأثر الإنسان ويأثّر، فعلى المرإ أن يرعى التقي والصالحية والرزانة فيه. حيث يقول الشيخ نورالدين ولي:

رِتبِن ستبِن دوہ دٕبن بُرِ زے
زَن دِتُتھ شاہ وُ لگے کنٛز
بَدن ستبِن خوے نوتھوِ زے
زَن اَژکھ تمہٕ نبِن بانن منز [13]

الترجمة: إذا تقضى وقتك مع الصّالحين فكأنّك تطحن شاهْ وَلُخْ (اسم أرزّ شهية ذكيّة الرائحة، كان يوجد ببلدة كشمير في غابر الزمان ولا يوجد الآن) وإياك وصحبة الأشرار؛ فإن اخترته فكأنّك تدخل الإناء السوداء وتلوّثك بسواد قدور المطبخ.

ويقول أبو العتاهية:

إصحب ذوي الفضل وأهل الدين ... فالمرء منسوب إلى القرين
مؤاخاة الفتى البطر، البطين، ... تهيج قرحة الداءِ الدفين
وتدخل، في اليقين، عليك شكاً ... ولا شيءٌ أعزّ من اليقين
فدعه، واستجر بالله، منه ... فجار الله في حصن حصين[14]

وبجانب إلقاءهما أضواء على الاهتمام بالصداقة والفوائد الأخرى المذكورة يحثان على كون المرإ كثيرالأصدقاء، حيث يقول الشيخ نورالدين إنّ الصداقة لازمة للإنسان وكذالك من الحكمة أن يكون المرء أكثر صديقا؛ كي لا يجد نفسه وحيدا عند المعاناة من المتاعب.

دَے ہَے دِلی تہٕ مِتر بیول ؤ وِی زے
سگہٕ کنہِ دی زٕبس ہٹہِ کُے رتھ
یار نَے ڈیشِ زٕبن کیا کُرِی زے
یار کتہِ تراوی یارِ ہِنز کتھ [15]

الترجمة: إن يعطيك الله بذور الصداقة فازرعها، واسق حقولها بدماء حلقومك. وإن لم تجد صديقا فماذا تفعل وقت احتياجك؟ إن الصّديق لا يترك صديقه وحده عند الضرورة.

ويقول أبو العتاهية:

عامل الناس برأي رفيق ... والق من تلقى بوجه طليق
فإذا أنت جميل الثناء ... وإذا أنت كثير الصديق[16]

وقال أيضا:

واحفظ أخاك لما رجاك له ... وإذا دعاك، فكن له عضدا
وتعاهد الإخوان، إنهم ... زين المغيب، وزين من شهدا[17]

ملخّص القول:

وجملة القول أن الشاعرين الجليلين أبا العتاهية و الشيخ نورالدين ولي عالجا الحكمة في شعرلغتيها العربية والكشميرية. أكثرا فيه القول وأجاداه، وتركا فيه آثارهما الروحية الخالدة الباقية. بيد أن اللغة العربية لغة عالمية واللغة الكشميرية لا يتجاوز ناطقوها من بعض مناطق الهند وباكستان؛ ولكنّهما مشتركتان في شعر الحكمة. وما قدّمنا من النماذج في المقارنة خير شاهد على هذا.

---

1. الغزالي أبو حامد،مُحَمَّد بن مُحَمَّد، إحياء علوم الدين،الطبعة الأولى 2005ص: 1574
2. الغزالي أبو حامد،مُحَمَّد بن مُحَمَّد، إحياء علوم الدين،الطبعة الأولى 2005ص: 259
3. أبو العتاهية، أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم: ديوان أبي العتاهية، تحقيق: مجيد طراد،دار بيروت ملتزمة الطبع والنشر1995م، ص223
4. اسد الله آفاقي، كليات شيخ العالم، ص354
5. مجيد طراد، ديوان أبي العتاهية، ص264
6. اسد الله آفاقي، كليات شيخ العالم، ص260
7. مجيد طراد، ديوان أبي العتاهية، ص254
8. اسد الله آفاقي، كليات شيخ العالم، ص377
9. مجيد طراد، ديوان أبي العتاهية، ص307
10. اسد الله آفاقي، كليات شيخ العالم، ص448
11. مجيد طراد، ديوان أبي العتاهية، ص342
12. أسد الله آفاقي، كليات شيخ العالم، ص: 430
13. نفس المصدر ، ص203
14. مجيد طراد، ديوان أبي العتاهية، ص381
15. أسد الله آفاقي، كليات شيخ العالم، ص406
16. مجيد طراد، ديوان أبي العتاهية، ص406
17. نفس المصدر، ص250